أولاً : قسم الدراسة

تمهيد

لقد عني النّحاة منذ بدأ التفكير في وضع قواعد العربية بوصف أبنيتها عنايتهم بوصف تراكيبها ، واستطاعوا أن يخرجوا في وقت مبكّر بقياسات لهذه الأبنية فيما يتصل بهيئتها وما يعتريها من تغييرات ، ونشأ بهذا إلى جانب علم النحو علم يسمى علم الاشتقاق . وقد تبيّن للنحاة من خلال استقرائهم أنّ هناك أبنيةً انفرد بها الصحيح دون المعتلّ ، والمعتلّ دون الصّحيح ، وكأنّ النحاة قد نظروا في الأبنية التي تفرّد بها الصحيح و لم يرد المعتل عليها ، باحثين عن السبب في ذلك ، فوجدوا – مثلاً – أنّ الصحيح قد تفرد ببناء (فُعْلُول) ، نحو: (بُهْلُول) و(عُصْفُور) ، فأرادوا أن يبنوا من المعتل هذا البناء ، فبنوه من (رمى) مثلاً ، فأداهم التصور إلى (رُمْيِيٍّ) ، وقد مضى النحاة في صنيعهم هذا يبنون من المعتلّ ما لم تتكلم به العرب قائلين : إن المشتغل بهذه الأبنية يحكم صنعة الإعلال والإدغام ، ونشأ بذلك فنّ جديد دعي من أوّل الأمر بِفَنّ التصريف . قال سيبويه وهو يتحدّث عن باب " ما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به ، و لم يجئ في كلامهم إلا نظيره من غير بابه " ، قال : " وهو الذي يسمّيه النحويّون التصريف والفعل " . هذا هو موضوع علم التصريف أول الأمر ، وهو كما رأينا وليد علم الاشتقاق .

ولقد سار المازني على نهج سيبويه عندما وضع كتابًا في التصريف ، فإذا كان سيبويه قد مهد للتصريف بذكر أبنية الأفعال والأسماء الصحيحة والمعتلة ، فقد صدر المازني كتابه بذلك ، منبّهًا على أنّ هذه الأبنية ليست من علم التصريف ، فقال : " وإنما كتبت لك في صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة ؛ لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بَنَت من الأسماء والأفعال . فإذا سُئلت عن مسألة فانظر : هل بَنَت العرب مثالها ؟ فإن كانت بَنَت فَابْنِ مِثل ما بَنَت ، وإن كان الذي سُئلت عنه ليس من أبنية العرب ، فلا تَبْنِهِ ؛ لأنك إنما تريد أمثلتهم ، وعليها تقيس " .

ولما كان سيبويه قد أتبع حديثه عن الأبنية بذكر أحوال حروف العلة والهمزة ، فكذلك صنع المازني ؛ لحاجة المصرف إليها ، وقال : " واعلم أنّ الهمزة وبنات الواو والياء

فيهنّ مسائل التصريف ، فانظر كيف صنعت العرب في الياءات والواوات والهمزات اللواتي هنّ فاءات الفعل وعيناته ولاماته ، وما ألحق باللامات من الياء ، وكيف أجروهنّ ، وكيف ألزموهن الحذف والتغيير والإبدال حتى يسهل عليك النظر إن شاء الله " .

وقد وازن ابن جني بين التصريف والاشتقاق من جهة ، وبينه وبين النحو من جهة أخرى ، فذكر أنّ التصريف والاشتقاق تجيء بهما المادة على وجوه شتّى ، وأن التصريف والنحو يقاس فيها ما لم يسمع على ما سمع .

لا نجد إذًا في كتب التصريف الأولى حديثًا عن الأبنية المقيسة ، ولا عن المصغر والمنسوب وأبنية الجموع ، وذلك بيِّن في تصريف المازني ، على أن هذا المنهج تعرض للنقد ، وعرف عن بعض الأوائل رفضهم للتصريف ، فقد أخذ على أبي عمرو بن العلاء أنّه لم يكن يعرف التصريف ، واعتذر عنه اليزيدي بقوله : " ليس التصريف من النحو في شيء ، إنما هو شيء ولدناه نحن واصطلحنا عليه ، وكان أبو عمرو أنبل من أن ينظر في شيء ولده الناس " ، ولقد حكى الإمام عبد القاهر ما وجه إلى التصريف من نقد ، فقال : " فإن بدءوا فذكروا مسائل التصريف التي يصنعها النحاة للرياضة ولضرب من تمكين المقاييس في النفوس ... " . ويرد عبد القاهر عليهم بقوله : " أما هذا الجنس فلسنا نعيبكم إن لم تنظروا فيه ، ولم تعنوا به ، وليس يهمّنا أمره ، فقولوا فيه ما شئتم ، وضعوه حيث أردتم " . وقال ابن مضاء : " .. ومما ينبغي أن يسقط من النحو : ابن من كذا على مثال كذا .. " ، ويبدو أنّ هذا النقد المتقدم كان وراء تطور موضوع علم التصريف ، فقد أخذت الأبنية المقيسة في الأفعال والأسماء ، وكذلك قواعد التغيير في الأبنية ، تندرج في علم التصريف ، ومن أوائل من صنع ذلك الفارسي في (التكملة) ، ومعنى هذا أنّنا أصبحنا ندرس في التصريف ما كان الأوائل يدعونه من علم الاشتقاق ، ومضى الزمن على ذلك . هذا وتُعدّ مقدمة ابن الحاجب في التصريف أجمع ما كتب في هذا العلم على منهج المتأخرين ، ولذلك عنوا بها ، وشرحها ابن الحاجب ، كما شرحها غير واحد من أعلام النحاة[1].

(١) من تقدمة د. البنا لكتاب الشّافية .

وقد صنعها لتكون تهذيبًا للأبواب التصريفية في كتاب (المفصل) للزمخشري مع قليل من الاستدراكات والإضافات ، ثمّ ألحق بها في آخرها مسائل التمرين . وكانت عبارته فيها مقتضبة وإشارته سريعة ، فجاءت الشافية في غاية الإيجاز ، حتّى إنها لتنحو أحيانًا نحو الغموض والإبهام ؛ مِمّا حَدَا ببعض علماء العربية إلى شرح غامضها وبسط موجزها وإطلاق مقيدها ، وربما نظمها بعضهم ثم شرحها .

وكان ابن الحاجب أوّل مَن شرح شافيته ، (وسيأتي حديث عن نسبته إليه) ..

ومن شروح الشافية :

١/ بغية الطالب في الرد على تصريف ابن الحاجب لابن الناظم (٦٨٦هـ) .
٢/ شرح نجم الأئمة رضيّ الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (٦٨٦هـ) .
٣/ شرح السيد الشريف ركن الدين الاستراباذي (٧١٧هـ) .
٤/ شرح الخضر اليزدي ، فرغ منه سنة (٧٢٠هـ) .
٥/ شرح فخر الدين الحسن بن أحمد الجاربردي (٧٤٦هـ) . وعليه عدد من الحواشي .
٦/ عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب لابن هشام (٧٦١هـ) .
٧/ شرح السيد عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقره كار (٧٧٦هـ) .
٨/ شرح نظام الدين النيسابوري الأعرج (بعد ٨٥٠هـ) .
٩/ المناهج الكافية في شرح الشافية لزكريا الأنصاري (٩٢٦هـ) .
١٠/ شرح عصام الدين الإسفراييني (٩٥١هـ) .

إلى غير ذلك من الشروح ، وهي كثيرة تتجاوز الخمسين شرحـًا .

وممن نظم الشافية :

١/ الشيخ أبو النجا خلف المعري المولود سنة (٨٧٩هـ) .
٢/ وإبراهيم بن حسام الكرمياني المتخلص بشريفي (١٠١٦هـ) .

نظمها تائية ، وسمى هذا النظم : (الفرائد الجميلة) ، ثم شرحه وسمى هذا الشرح : (الفوائد الجليلة في شرح الفرائد الجميلة) ، اعتمد فيه كثيرًا على شرحي الرضي والجاربردي ، وهو مطبوع في الجزء الثاني من مجموعة التصريف .

وأول المنظومة :

لمن أوجد الأشياء حمدي ومدحتي على ما علا نعماؤه وتوالت
عـــلى ســـيد الخلق النبيه نبيِّـــه وأصحابـــــه الأشـــراف خير تحيةِ

وآخرها :

وأهدي صلاة للرسول محمد وللآل والأصحاب أهل السعادةِ
ولما انتهى نظمي وبسط مقـــالـــتي لتاريخ ختمـــي قلت فالآن تمـــتِ

وأول الشرح : " الحمد لله الكبير المتعال ، واسع المغفرة كثير النوال ، الذي تقدس ملكه عن التصاق الاختلال والاعتلال ، وتنزه ملكوته عن التساق الماضي والحال والاستقبال .. " .

٣/ وعلي الينبعي الطالبي :

وأوّل نظمه :

تقـــدســـت إلهنا أســماؤكا وعظمـــت يـــا ربنا نعمـــاؤكـــا

وآخـــره :

وآلـــه مـــن بعـــده الأبـــرار والتـــابعين ثَـــم والأنصـــار
ما هب لطفًا من نسيم الســـحر وناح طير فوق غصـــن الشـــجر

٤/ والنيساري (القرن الثاني عشر) :

واسم منظومته الوافية ، أولها :

الحمـــد لله الـــذي يصـــرف بلطفـــه الريـــاح حـــين تعصـــف
مـــا صـــرفت أمثلـــة المبـــاني وصـــرحت بنطقهـــا المعـــاني

وآخرها :

تم بعـــون الله صـــرف الشـــافية ورختـــه فقلـــت نظمـــي الوافيـــة
أبياتهـــــا بليغـــــة عليـــــة عـــــدتها منظومـــــة قويـــــة
ناظمها في سلكها قـــــــــوام والحمـــــــد كالمسك لَهَا ختـــام

ويتبين بحساب جملة (نظمي الوافية) أنه فرغ منها سنة (١١٣٣هـ) ، وهي مطبوعة بآخر الشافية .

٥/ وأحمد بن محمد لقمان (١٠٣٩هـ) .

٦/ وحسين بن حسن بن محمد الحوثي اليمني (١١٥٠هـ) .

٧/ وحسين بن يحيى بن إبراهيم الذماري (١٢٤٩هـ) .

٨/ ومحمد بن أحمد بن قاسم حميد الدين اليمني (١٣٥٩هـ) .

٩/ ومصطفى بن محمد بن إبراهيم الطرابلسي[1] .

❐ ❐ ❐

(١) نقلاً عن مقدمة محقّق الشافية (٣٣-٥٣) بتصرّف .